بسم الله الرحمن الرحيم

(٢٦)

نظرية التطور بين الدين والعلم والعقل

للأستاذ / أنور الجندى – رحمه الله تعالى

نشأت فكرة التطور فى مجال العلوم البيولوجية أساسا ولكنها سرعان ما نقلت إلى مجال الفلسفة وأريد بها السيطرة فى مجال الفكر والثقافة وقد جاء ذلك نتيجة للخطوات التى اتخذها خلفاء (دارون) من أمثال هربرت سبنسر الذى حاول أن يطبق التطور على الأمور الإنسانية والأخلاق والتاريخ وقد جاءت قوى ذات أهداف معينة فركزت على فكرة التطور وأعلتها إعلاء خطيرا دفعها إلى التأثير فى مجال العقائد الثابتة مع أفرادها بالسلطان على كل القيم والمقدرات الأخلاقية والاجتماعية وكان ذلك جريا مع الاتجاه المادى الخالص الذى حاول أن يتنكر لكل ما سوى الحس والمادة من قيم ، ومعنى هذا أن نظرية قد وضعت بحيث يمكن استخدامها فى معارضة الأديان والعقائد والشرائع ، ومن الحق أن فكرة التطور (المادى والمعنوى) لا يمكن أن تسير فى غير نطاق

واضح وإطار محدود وفلك معلوم ، وأن هناك استحالة علمية فى أن تجرى حركة التطور عشوائيا فى غير نظام أو قانون يحكمها ومن هنا يبدو الفارق العميق بين رأى العلم وبين رأى الفلسفة وينكشف الفارق بين الاتجاه العلمى وبين أهواء القوى التى تتخذ من النظريات العلمية والفلسفية أسلحة لتحقيق أغراض بعيدة المدى .

والمفهوم العلمى الصحيح هو أن هناك قيما ثابتة وعناصر يجرى عليها سنة الحركة والتغير والتطور وأن هناك تناسقا يجرى بين أسس الثبات وعناصر التطور وأن هذا التناسق يجرى فى دائرة الثبات . وهذا المفهوم العلمى نفسه يطابق مفهوم الإسلام فى نظرية التطور والثبات فالإسلام يؤمن بثبات الأصول العامة والقيم العليا مع تطور الجزئيات والتفاصيل والفروع .

(**أولا**) وبالرغم من استشراء فلسفة التطور الاجتماعى التى دعا إليها سبنسر فإن العلم كانت له وجهة نظر مختلفة تماما حيث يقول : الدكتور كريس موريسون : إن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير وإنما التطور هو فى الصور والهيئات لا فى الحقائق لأن الحقائق ثابتة لا تتغير وأن القول بأن لا شىء ثابت على الإطلاق نظرية زائفة . فنزعة الطعام ثابتة

والذى يتغير هو صور الطعام ونزعة اتخاذ المسكن ثابتة والذى يتغير هو صور السكن . ونزعة اللباس ثابتة والذى يتغير هو صور اللباس وكذلك فإن نزعة القتال والصراع فطرة بشرية وصور القتال هى التى تتغير . ويتفق هذا مع وجهة نظر الإسلام الذى أعطى مبادئ عامة وترك الحركة والتغيير إلى الفروع والتفاصيل إيمانا بأن هناك قيما أساسية لا سبيل إلى تطورها والخروج عنها وهى بمثابة العمق للبناء . وقد كشفت الدراسات الأصيلة أن التطور لا يمكن أن يكون قانونا أخلاقيا وليس كل طور أفضل من الطور الذى سبقه كما يقول سبنسر بل إن التطور قانون اجتماعى واقعى ولا يقتضى بتفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة ، ذلك أن فكرة التطور الاجتماعى أخذت من فكرة التطور الحيوى (البيولوجى) والتطور فى الحياة يكون تحسنا وارتقاء وقد يكون انقراضا ، كذلك كشفت الأبحاث خطأ الرأى القائل بأن التطور والتقدم هو الاستجابة لنزعات النفس فى السلوك بالحركة فى أى اتجاه دون رعاية لاستقامة الحركة وبدون حاجة إلى إرادة وإيمان ، وهذا يؤدى إلى العودة إلى العصور الأولى بما فيها من تحلل . كذلك خطأ الرأى القائل بأن التقدم هو إهدار الأحكام السابقة وتقديرات الأشياء التى قررها وحكم

بها الإنسان فى عصر مضى ، فقد انتقل الفكر البشرى من الطفولة إلى الرشد الإنسانى .

(**ثانيا**) يستمد الفكر الإسلامى مفهومه للتطور والثبات من قانون التوازن الذى يحكم الموجودات جميعا ، وليس هناك سبيل إلى إلغاء أحدهما ولا سبيل إلى القول بالتطور المطلق وإنكار قاعدة الثبات ولا بد من الربط بين الثبات والتطور وقيام التوازن بينهما وأنه من المستحيل عقلا ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن يتوقف أحدهما أو أن ينفصل ولا أن يستعلى أحدهما ويسيطر ، فالثبات والاستقرار هو الجمود والتطور المستمر هو الفناء ، وهناك ترابط منظم بين الجمود والحركة وبين القديم والجديد وبين الميت والحى ، فالحياة ناجمة من موت والجديد منبثق من قديم والفكر بعامة يتطور ولكنه يظل ثابت الأصول والمقدمات ، والفكر الإسلامى ثابت الجوهر متغير الصورة ، وفى الفقه يجرى التطور بالنسبة للأحكام الفرعية دون الأصول وفى الشريعة أصول قائمة لا تخضع لقوانين التطور كالصلاة والزكاة وإلخ وحدود ثابتة إزاء الربا والزنا والقتل فهذه من القوى الثابتة التى لا تتأثر بالتطور والتغيير ولا يمكن القضاء عليها وكذلك فى نظام الكون نجد القوى الثابتة ونجد القوى التى تتحول وتتحرك أما

الأصول الثابتة فهى ليست خاضعة للتطور ، هذا هو مفهوم الإسلام ومفهوم العلم متطابق معه ، أما المفهوم المطروح فى أسواق الفكر الغربى والذى وصل صداه إلى الفكر الإسلامى فهو مفهوم فلسفى خطير لم يقم على أساس علمى وقد أخذ منطلقه من نظرية داروين فى التطور البيولوجى ثم نقل إلى ميدان الاجتماع والفكر ، ولا شك أنه بهذه النقلة إنما يستهدف غاية خطيرة هى واحدة من أهداف الفلسفة المادية الوثنية التى تحاول أن تسيطر على الفكر البشرى كله وتفرغه من مفاهيم الإيمان والأديان والرسالات السماوية وتدفع به بعيدا إلى نهاية خطرة نجدها واضحة وضوحا لا مرية فيه فى بروتوكولات صهيون أو نصوص التلمود أو متصلا بالمحاورات التى جرت منذ عصر التنوير فى سبيل إخراج الفكر الغربى المسيحى الأصل من كل القيم ودفعه إلى مجالات الماديات المغرقة ، وتشكل هذه المحاولة فلسفة واضحة متكاملة تهدف إلى تدمير قوى الأديان والأخلاق والإيمان بالله ودفع الإنسانية كلها إلى الدمار بتحطيم قيمها ومعنوياتها وتفريغها من كل القوى التى تحملها على التماسك فى وجه الغاية الصهيونية البعيدة المدى وهى السيطرة على العالم ولقد كانت نظرية التطور هى المنطلق الخطير للقول

بأن كل شئ يتحول ويتغير ولا يبقى على حاله وأنه يبدأ فى أول الأمر ضعيفا ثم ينمو ثم جرت محاولات تطبيق ذلك على الأديان والأخلاق ومنها انطلقت النظرية التى تقول بأن الأخلاق تتطور مع العصور وأن الأديان تتطور مع البيئات والقول بهذا مخالف كل مخالفة للحقائق العلمية الصحيحة ومعارض لنواميس الكون والحياة ولقد كان الترويج لمذهب التطور على هذا النحو خروجا به عن المجال العلمى الصارم إلى المجال الفلسفى الذى لا يخضع لأى سند علمى أو عقلى ، ومن مذهب التطور انطلقت كل المذاهب والدعوات والفلسفات المادية فقد اعتبره المتشبثون به قاعدة لعلوم جديدة هى : مقارنات الأديان وتفسير التاريخ والنفس والأخلاق والاقتصاد والاجتماع . ومن هنا أخذت هذه العلوم تخضع للمناهج التى تخضع لها العلوم المادية بينما تناقض هذا مع أبسط قواعد المنطق والعقل ولقد كان القول بالتطور المطلق سبيلا إلى نزع القداسة عن الأديان والقوانين والقيم والأخلاق والسخرية منها والدعوة إلى التحلل والإباحية وإنكار مقومات المجتمعات والعقائد على النحو الذى كشفت عنه نظريات فرويد ودوركايم وغيرهما .

ولقد هوجمت نظرية التطور المطلق فى المحيط الاجتماعى والفكرى هجوما علميا ودحضت بمنطق عقلى واضح ولكن أصوات دعاتها المسرفين فى استغلالها ظلت أعلى الأصوات لأنها لم تكن أصواتا طبيعية وإنما هى أصوات تدفعها قوى بالغة القدرة فى مجال النشر والإعلان ولقد جرى كثير من الكتاب وراء بريق نظرية التطور وربما بحسن نية دون أن يتبين لهم أبعاد الخطر من القول بالتطور على إطلاقه بعيدا عن مفهوم الإسلام الجامع دائما بين التطور والثبات وهو جمع يقوم على أساس علمى صحيح ، ذلك أنه من السذاجة النظر إلى التطور بعيدا عن القيم الثابتة وبمعزل عن الأصول الأساسية لفكرنا ومقدراتنا والدعوة المسمومة إلى التطور إنما تحاول أن تقضى على التراث القديم ومنها العقائد والأديان والأخلاق . وقد فرق الباحثون المسلمون بين التطور والتطوير وعارضوا القول بأن التطور معناه تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له .

فالتطور يشمل أى تغير يحدث فى أوضاع الجماعة سواء فى اتجاه تقدمى تصاعدى أو اتجاه عكسى تنازلى . ثم هو فوق ذلك ينبئ عن أن دوافع هذا التغير وعوامله إنما يكون منشؤها ذات الشىء ومردها إلى ما فيه من طاقات طبيعية .

أما التطوير فهو عكس ذلك يختص أولا بالتغيير التصاعدى الذى يهدف دائما إلى طلب الكمال والحياة الأفضل ويتأثر بدوافع خارجة عن طبيعته ، والقوة الخارجية هى العيادات الإصلاحية والدعوات التقدمية . وهذا يعنى المواءمة بين الأصول التى يقوم عليها الفكر من تشريعات وقيم بين ما يتجدد تحت إلحاح من عوامل التطوير الضرورى فى مختلف النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ومن هنا يسقط القول بأن التطور يمثل قانونا تقدميا أى أن كل طور أفضل من الطور الذى سبقه .

ومن ناحية أخرى فقد واجه الفكر الإسلامى الأخطاء التى انطوت عليها نظرية التطور التى ارتبطت أساسا بالمفهوم المادى الذى استخلصه الفلاسفة من نظرية دارون ، والذى قام على أساس إنكار وجود الخالق والقول بنشأة الكائنات الحية نشأة طبيعية من غير منشئ ، والفكر الإسلامى يثبت الخلق لله لا للطبيعة ويقرر وقوع البعث فى الآخرة مع الإيمان الكامل بالغيب . وقد ظهر الآن فى مجال العلم ما ينقض هذه الفروض الفلسفية فيقول الدكتور كورلس موريسون : أن نظرية أن الإنسان قرد قد كذبها العلم الحديث لما بين النوعين من بعد شاسع ففى الإنسان خواص لا توجد

فى القرد منها قدرته على التفكير ووجود الوحدات الجماعية فى القبلة و الأمة ، والحزب والدين ومنها خواص بيولوجية وقال أجا سير أن النشوء لا يتم إلا وفقا لخطة إلهية محكمة وأن الاصطفاء الطبيعى إذا ما حل محل الخلق الإلهى فإن الإنسان يكون قد جرد من روحه وغدا آلة صماء كذلك فإن التفسير الحرفى لنظرية دارون قد أفسح المجال لتأليه سوبر مان نيتشه وتمجيد القوى البدنية على أنها السلوك الصحيح بين الناس . ويقرر العلم الآن فى وضوح " بأن الفكرة التى يعتنقها الداروئيون (عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضا اعتباطيا يتعارض مع الآراء الفسيولوجية الرصينة) وأن الإجماع بين العلماء – لا الفلاسفة –على أن الحياة لم تحدث مصادفة وأنها حدثت بقوة الله وإرادته .وهكذا ينكشف زيف النظرية وما ساقها إليه الماديون وعلى رأسهم لامارك وهيكل الذى دعا إلى تأليه الطبيعة وثم من انتقلت إلى مجال الاجتماع والفكر على يد (هربرت سبنسر) الذى حاول تطبيق نظرية التطور على العوالم والمجتمعات ونقلها من نظرية إحيائية إلى نظرية اجتماعية .

ولقد أكد الفكر الإسلامى أن التطور الذى دعت إليه المذاهب الفلسفية المادية إنما أريد به إطلاق الحريات الاجتماعية والفكرية على النحو الذى يصل بالبشرية مرة أخرى إلى الإلحاد والإباحية وأن هذا ليس متقبلا فى الفكر الإسلامى وأن هذا النحو إنما قام فى الغرب فى مجتمع خلا من منهج ربانى اجتماعى حيث كان الدين عقيدة عبادية فحسب .

ومما يتصل بنظرية التطور فقد كشفت الأبحاث عن استغلال رجال السياسة لها فضلا عن علماء الاجتماع فقد كان لمبدأ (تنازع البقاء وبقاء الأصلح) أثره فى الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها ، فقد ظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتمييز العنصرى والشعوب المختارة ، كما نشأت نظرية القوة عند نيتشه ، ولقد اتخذت مبررا للغزو الاستعمارى والاستعلاء العنصرى اللون والدعوة إلى الجنس الأبيض صانع الحضارة والأرستقراطية التى أعلنت امتيازها بميراث الأجداد . كذلك تلقفها معلنوا الحرب على الأديان فاتخذوها سبيلا إلى الانتقاص من قدر الدين وإعلاء شأن العلم .

(٢)

إن الخلاف بين العلم والدين هى قضية غربية خاصة بالأوربيين وموقفهم من الكنيسة وتفسيرات الدين وقد نقلت هذه القضية إلى أفق الفكر الإسلامى نقلاً باطلاً وزائفاً وموقف الإسلام من العلم معروف فليس فى تاريخ الإسلام أو الفكر الإسلامى ما يشير إلى أن هناك مناهضة بين العلم والدين وقعت أو أن الدين ناهض العلم .

إن علماء الغرب قد وجدوا فى كتبهم المقدسة ما يتعارض من كشوف العلم فاختلفوا . أما القرآن وهو كتاب المسلمين المقدس فليس فيه ما يخالف أو يختلف أو يتعارض مع رأى من أراء العلم والعلماء بل على العكس من ذلك أن كثيراً من المفاهيم العلمية الثابتة لها مدلول فى القرآن . والدين بمفهوم العقائد له مجاله وأسلوبه فى المعرفة والعلم بمفهوم الكشف عن الطبيعة له مجاله وأسلوبه ولكن الإسلام يجمعهما معاً فى كلٍ متكامل دون تعارض حيث يقرر الإسلام فى منهج المعرفة أنه يربط بين أسلوب العقل وأسلوب القلب ، والإسلام هو الذى دعا إلى حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح الذهنى وفى أحضانه تكامل معنى الدين والعلم فالإسلام كما يقرر المثل الأعلى لقواعد الإيمان يقرر المثل الأعلى لقواعد

العمل ، ويربط بين العلم والعمل ، ويقرر طلب البرهان والدليل ولا يقرر المفاهيم والأفكار بمعزل عن العمل والتطبيق وإنما يرى المفاهيم والأفكار مقدمات دافعة لبناء حياة كاملة .

وفى رأى كثير من علماء الدين والفكر الإسلاميين أن العلم والدين اليوم يتكاملان ، فالعلم اليوم أصبح يسلم بوجود ما ليس قائماً أمام الحس ، فقد ذهب عصر البديهيات وتغير واقع القواعد العلمية وأصبح عصرنا عصر يقين واعتقاد بالقوى الخفية وينتظر أن يخطو العلم خطوات واسعة نحو الدين الحق ، ويقرر الدكتور محمد خليل عبد الخالق أن الأساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية فى القرن التاسع عشر قد انهار وأصبح العلماء الآن إذا تكلموا عن الكون وعن الإنسانية وعن الحياة يتفوهون بعبارات صوفية : إن العلم ليس كل شئ فى الوجود وأن الدين وسيلة للسمو بالإنسانية إلى مرتبة أرفع ، ويقول الدكتور على توفيق شوشة : لقد اتسع نطاق التحقيق العلمى اليوم وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء المظاهر وأن الكون ليس حقيقة فى ذاته بل هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة .

وفى الغرب يرى الباحثون أن النزاع فى القديم ــ كما يقرر (أميل بوترو) لم يكن بين العلم والدين وإنما بين الفلسفة

والدين . ويقول (برجسون) أن فصل الدين عن العلم هو فناء محتوم للاثنين معاً ، إن الإنسان لا يستطيع بعد الآن الارتفاع فوق الأرض ما لم يستند إلى خالق جبار . إن جوهر الأساس هو تحرير الإنسان من كابوس المادة ، هذا التحرر من المادة يحتاج إلى دين .

ويقول بوترو : يرى المفكرون الغربيون اليوم أن العلم والدين هما أساس الحياة الإنسانية ويقررون عجز العلم عن حل المشاكل وأن العلم مهما تقدم فهو محدود ، وبذلك لابد من الرجوع إلى ما يسد الفراغ على طريق الدين .

(٣)

من أهم القضايا التى يثيرها العلم والفلسفة : قضية العقل . وفى الفكر الغربى صراع بين التجريب والعقل وبين العقليين والتجريبيين ، وفى العالم فلسفات تقوم على الوجدان والحدس والعاطفة وحدها فى مقابل الدعوة إلى العقلانية ولكن الإسلام يحسم الموقف كله حين يقرر أن له منهجاً جامعاً بين العقل والقلب وبين الروح والمادة . وأنه لا سبيل إلى إعلاء العقل وإفراده بالنظر ولا إلى إعلاء الوجدان وحده .

لقد اعتمد منهج العقلانية على العلم وعلى المحسوس وعلى الماديات وعلى كل ما يدخل فى بوتقة المعامل ، وأغضى إغضاءً تاماً عن عالم الغيب (الميتافيزيقا) وما وراء الطبيعة وكل ما يتصل بها من وحى ونبوة وعوالم كاملة تكمل العلم المحسوس والمعقول ، وبذلك تجاهل الفكر الغربى جانباً كبيراً من المعرفة الحقيقية لا سبيل إلى فهم الحياة فهماً صحيحاً دون الاعتراف بها وتقديرها كبعد أساسى فى المعرفة والاعتقاد والفهم ، فالفكر الإسلامى يقوم ــ دون الفكر الغربى المادى ودون الفكر الشرقى الإشراقى الحدثى (وربما كانت الحدسى) (١) ــ على كمال النظرة وشمولها وجماعها فالفكر عنده أداة من أدوات المعرفة لها مجالها وميدانها وطريقها الذى استطاعت أن تنطلق منه وفى حدود هذه المقدرة استطاع أن يقدم الكثير ، غير أن هناك ميادين عجز عن اقتحامها ومناطق اكتشف أن قدرته لا تؤهله لاختراقها وقضايا وجد أنه قاصر عن الحكم فيها ، هذا الجانب هو عالم الغيب الذى صوره الحق تبارك وتعالى فى القرآن وأمدنا بحقيقته عن طريق الوحى وأمرنا أن نؤمن به ، هذا الجانب الذى يقبله العقل ولكنه لا يستطيع وحده أن يصل إلى الحكم فيه لأن أداته غير مؤهلة لهذا الغرض فالعقل ليس مستقلاً

بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء فى جميع المعضلات ، والعقل فى مفهوم الإسلام مناط التكليف وهو نور فى القلب ومهمته أن يعرف الحق من الباطل والخير من الشر والحسن من القبيح فى ضوء الوحى وليس خارجاً عنه ومن هنا كان خطر الدعوة المثارة إلى تقديس العقل وتأليه العقل وإعلاء العقل واعتباره سبيلاً وحيداً فى البحث أو مصدراً للحكم على الأشياء ، وهذه واحدة من الدعاوى التى يحمل لواءها الماديون ويهدفون بها إلى هدم عالم كامل هو عالم الغيب أو ما وراء الطبيعة .

أما فى الإسلام فإن هناك ترابطاً بين العقل والوحى أو العقل والنقل أو العقل والقلب ، فالعقل وحده لم يستطع أن يصل بالذين اعتمدوا عليه إلى معرفة كل الحقيقة وأدى إلى انحرافهم وفساد رأيهم ، لأنه جزء من حقيقة كاملة لا تكتمل إلا بأمور أخرى وكذلك أخطأ الذين نحوا العقل وتجاهلوه ، والتمسوا المعرفة الباطنة عن طريق الأشراق أو الحدس أو الوجدان وحده ، ومن هنا جاء اكتمال النظرية الإسلامية للمعرفة جامعة بين العقل والقلب ، جامعة بين عالمين : هما عالم الشهادة وعالم الغيب .

ولا شك أن للعقل مجاله فى ميدان العلوم والتجريب وأفاق الكيمياء والتكنولوجيا وغيرها .

ولقد كان له دوره الضخم الذى استطاع به المسلمون بناء المنهج التجريبى حين تخطوا المرحلة النظرية التى وقفت عندها دراسات ما قبل الإسلام وقد كانت نظرية المعرفة الإسلامية الجامعة بين العقل والقلب مصدر النصر الذى حققه المسلمون حين وصلوا إلى قاعدة لم يسبقهم إليها سابق وهى قاعدة (جـــرب واحكـــم) فى مجال الطب والفلك والهندسة والكيمياء .

ومن هنا سار العقل والقلب فى الفكر الإسلامى فى إطار واحد ، دون أن يقع بينهما ذلك الصدام الذى عرفه الفكر الغربى ودون أن تتمزق الجبهة الواحدة المتكاملة إلى محورين منفصلين متصارعين على النحو الذى نراه فى الفكر الغربى بين العلم والدين .

ولقد أكد العلماء المسلمون القاعدة التى وضعها النبى صلى الله عليه وسلم حين قال (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه) فكان ذلك دعوة إلى التمحيص والإقناع وهى التى وصلت بالمسلمين إلى إجراء التجربة .

وقد أقام المسلمون تجاربهم العقلية والعلمية تحت راية الوحى وفى ظلال مفهوم الإسلام الجامع بين العقل والقلب والروح والمادة ، ومن هنا كان منطق المسلمين فى الترابط بين العلم والدين واضحاً ، فالأصل فى العلم العقل ورائده التجربة الحسية ومن ثم فالعلم يمتد إلى مجال واسع ، ويحقق فيه إنتصارات ضخمة ولكنه يقصر عن إدراك سائر حقائق الكون وخاصة عالم الغيب والعلم فى مفهوم الإسلام يأمر أهله أن لا يعادوا ما يجهلون من الحقائق وأنهم فى جانب الغيب لهم منهجهم فى الإيمان به عن طريق القلب المصدق فى الوحى والعقل شاهد ومقرو والإسلام صديق العلم بما تضمنه القرآن من نصوص تحض على طلب العلم والتمرس به وليس للعلم الصحيح أن ينكر الدين فيحكم على شىء ليس فى مفهوم بحثه ولا هو داخل ضمن دائرة نظرياته التجريبية والحسية ، وما كان للعلم أن يخرج عن وظيفته وهى البحث والاستطلاع والملاحظة للظواهر الطبيعية ولا يقول بالنفى أو الإثبات لما يجهله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر ، وكل ما يقرره علماء المعامل يؤكد عجز العلم وبالتالى العقل عن أن يكون قادراُ على الإحاطة الكاملة أو الفهم المستقل للكون والحياة يقول العلامة كرلسون : أن العلم لا يعطينا فى

مجموعه إلا معارف مبهمة للغاية وذلك من جهة العلل الخفية التى لا تتعلق بها تجاربه .

وقد قرر العلماء فى شبه رأى موحد أن العلم يعجز عن أن يفسر ظواهر الأشياء أو يعللها ولكنه يصفها ويقررها فمهمة العلم فى تقديرهم قاصرة على وصف الظواهر وتقريرها لا تعليلها ، وقد كانوا فى أول النهضة يهتمون بمعرفة (لمـــــــــــاذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها ومن ثم رجعوا فى تواضع إلى إقرار الحقيقة فالعلم عندهم لا يفسر شيئاً وإنما يربط ويتسق ويلاحظ ملاحظة منهجية وبالتالى يصف ويقرر . ويرى أن هذا ليس فهماً للأشياء ولكنه تعرف عليها ، ويقرر العلماء الآن أن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة وأعمال البشر ، وعلاقاتهم ، التى يمكن باستخدام المشاهدة والتجربة اكتشاف قوانينها والعلم يعترف الآن بأن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك شيئا إلا عن طريق الحواس ، ولذلك فكل ما يقع وراء دائرة الحس والعقل لا يستطيع العلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئاً وقد تقرر أيضاً أن حقائق العلم ليست مطلقة ولا أبدية . وإنما هى حقائق نسبية والبحث العلمى فى صراع لا ينتهى بين الإنسان

والطبيعة ، فكلما ازداد الإنسان معرفة لقوانين الطبيعة ازدادت سيطرته عليها وما زال العلماء يتساءلون هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة ، ومعنى هذا أن العلم رغم تقدمه لم يستطع أن يحل المشاكل الكبرى المتمثلة فى أصل الكون ونهايته وطبيعته المادية ومنشأ الحياة وخلود الروح ، ومعنى هذا أن العقل جهاز له مقدرته المحدودة وطاقته التى تقف على أبواب عالم الغيب ، وهذا قرار العلماء المعمليين الحاسم ، الواضح ، فلماذا إذن يسرف الفلاسفة فى حمل لواء المادية والوثنية ولماذا لا يقرون بالحقيقة الدينية ويصرون على أن العقل هو الواسطة الوحيدة للمعرفة الإنسانية . الحق أن هؤلاء الذين يحملون هذه الدعوة ليسوا بعلماء وما يقولونه ليس علما وإنما هو فلسفة تدخل فى نطاق واضح ، هو نطاق المادية التى حددت موقفها مسبقاً من الله والنبوة والرسالات السماوية والعالم الآخر والتى لا سبيل إلى أن تقتنع بها .

(**ثالثاً**) تبين فساد ما حاول بعض دعاة العقلانية من الاعتماد عليه مما وصف بأنه حديث للنبى عن العقل وإقباله وإدباره وأنه أول ما خلق الله وهو حديث قال بوضعه الإمامين ابن تيمية والسيوطى وضعف رواياته كثيرون من

الحفاظ فى طليعتهم الحافظ الذهبى وتكمن خطورته فى الصيغة الروائية التى تشيع فيه مصورة العقل بصورة مادية كذلك زيف المفهوم الإسلامى الأصيل كل ما أشار إليه الفلاسفة أمثال الفارابى وابن سينا وغيره مما يسمى بالعقول العشرة وغيرها مقلدين للفكر اليونانى وغارقين فى أخطائه وقد عالج هذا الموضوع بروح إسلامية خالصة كثيرون منهم الحارث المحاسبى صاحب كتاب فهم القرآن وقال الحارث : أن العقل غريزة أو نور ووافقه الإمام أحمد وهو ما يقرره العلم الحديث ، وقد أشار علماء المسلمين إلى أن القوة المدركة فى الإنسان يطلق عليها تارة عقلاً وتارة روحاً وثالثة نفساً ورابعة قلباً ويرى الإمام الغزالى : أن العقل يحتاج إلى معونة خارجية إذا ما انتبته آفة الشك ولتنبيهه وإرشاده فى الأمور الإلهية التى لا يمكنه الإطلاع بها إلا بالوحى والإلهام وفى الغرب أشار كانت فى كتابه نقد العقل المحض : إلى أنه لا يوجد لدى الإنسان من حيث الأساس قوة قادرة تدفعه عن دائرة ما يلفظه عقله الضعيف من التفكير وأن الشعوب التى ناقضت الأديان المنزلة كانت لا تخرج فى تفكيرها عن التخيلات التى تبتدعها عقول المفكرين فيها من العقائد الباطلة والإلحاد والانحطاط الخلقى . وقال برجسون

فى مواجهة مذهب داروين وسبنسر : أن العقل يستحيل عليه أن يبلغ الحق وأن البصيرة هى الطريق المأمون . وأن العقل ليس أداة صالحة لإدراك حقيقة الكون لأن نهاية مجهوده أن يقف عند ظواهر الأشياء وهو " يجزئ " الوجود ليتمكن من دراسته جزءا جزءا مع أن الوجود فى حقيقته وحدة موصولة الأطراف وأن الوسيلة التى تدرك بها الشاة ما يتهددها من خطر الذئب أقرب جداً إلى اليقين من كل ما عسى أن يصل إليه بالعقل بعد الدراسة والتحليل ، وقال برتراند رسل : أن التعارض بين أحكام العقل وأحكام الغريزة وهم وليس له وجود وأن كليهما ضرورى لوصول الإنسان إلى الحقائق فالبصيرة تخلق الرأى والعقل يرعاه .

وفى الغرب عندما بدأ التمرد على العقل تحول الاتجاه إلى الغريزة وعبادة القوة ، فثار على العقل (فخت وكارليل ونيتشه وشمبرلين وبرجسون) وكانت دعوتهم إلى طلب القوة والقسوة لا الرحمة ، وهكذا تأرجح الفكر الغربى بين عقل صارم وبين غريزة مستعلية ، أما فى الإسلام فالتوازن قائم ودقيق ، بحيث لا يجنح الفكر إلى التطرف هذه الناحية أو تلك وإنما يسير فى نطاقه التكامل ، والتوسط ، والفهم لكل الأبعاد .

(٤)

يتسائل الدكتور كارل فى كتابه تجديد الإنسان : هل يستطيع العلم أن ينقذ الحضارة ويقول : إن من أخطر الأخطار أن معالمنا غير وافية ، فنحن نعلم كثيراً عن الشموس والمجرات ولكنا عاجزون عن الملائمة بين نفوسنا وبين العالم الميكانيكى الذى خلقناه ، ولذلك يتعذر أن نعيش فى سلام وفى رغد لقد فرقت الحضارة منذ اليوم الأول بين المادة والروح واعتمدت على المادة .

فرق جاليليو بين خواص الأجسام الأولية كالأبعاد والوزن وهما مما يسهل قياسه والخواص الثانوية كاللون والرائحة وهما مما لا يقاس . فرق جاليليو بين الكم والنوع وعنى بالأول وحصر أتباع جاليليو همهم فى (الكم) وأهملوا (النوع) وحماستهم فى سبيل الوزن والقياس حولت الإنسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء . هذا الخطأ يجب إصلاحه قبل أن يتمكن العالم من إنقاذ الحضارة لأن فى الإنسان شيئاً أكبر من الطبيعة والكيمياء ونواميسها ومن أخطاء (ديكارت) أنه فصل الأشياء المادية عن الأشياء الروحية فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا مما لا يمكن تفسيره وغدا بناء الجسم وطريقة قيامه بوظائفه المختلفة فى نظرهم

أشد ثبوتاً من الفكر والنشوة والحزن والجمل { أو الجدل } .
) هذا الخطأ حول الحضارة إلى الطريق الذى أفضت إلى
انتصار للعلم وانحطاط الإنسان وعلى منقذى العالم اليوم أن
يتوفروا على دراسة الإنسان من ناحيتيه : الكمية والنوعية
معاً وعليهم فى المقام الأول أن يدرسوا العقل الإنسانى " ذلك
المجهول العظيم " الذى شرع علماء النفس يردونه بأساليبه
المختلفة . أن تقدم العلم فى كل ما وصل له بالغذاء
والرياضة البدنية والصحة وشفاء الأمراض والوقاية منها ،
كل هذا قد تم على حساب النمو العقلى ، وهذا هو التفسير
المعقول لما نراه فى حضارتنا ونحن مع ما تلقيناه من ارتقاء
فى جميع النواحى لا نزال عاجزين فض وجوه الخلاف دون
الالتجاء إلى الحرب ، ويمضى الباحثون فى الغرب يضعون
العلم فى الميزان " لقد تقدم العلم تقدماً نتج عنه انقلاب خطير
فى الأوضاع ، ولكن لقد استغل العلماء العلم بعيداً عن قوى
الروح والقلب فأعلوا من شأن العقل والعلم علواً كبيراً
وحكموا العقل فى القلب كما حكموا العلم فى الدين فنتجت عن
ذلك أخطار ، لقد استأسدت الغرائز وأسرفت المطامع فإذا (
آلة العلم) تتجه نحو التدمير والتخريب والفتك والتقتيل حتى
أصبحت القوة مقياس تقدم الأمة وعظمتها ، ولو تدخل القلب

واتجهت آلة العلم نحو البناء والإثمار لسمت المدنية وارتفع شأن الإنسانية ، إن الأمم لا تصلح بالعلم بقدر ما تصلح بالقلب والأخلاق وأن التقدم الذى وصل إليه الإنسان لم ينج الإنسانية من الأهوال . لقد زاد تقدم العلم المشاكل تعقيداً كما سلب العالم راحة البال وطمأنينة النفس ، ذلك لأن حكمة الإنسان قد قصرت عن إعلاء الرغبات والنوازع غير حاسبة للخالق تعالى حساباً ، والذى يخشاه الباحثون أن الحكمة البشرية إذا أفلست فى النهوض بعبء إدماج العلم فى أغراض الروح والخلق استوت هذه القوى فى اتجاهها نحو التدمير وهددت بزوال ما بقى من معالم الحضارة والصيحة الآن ، إن العلم وحده لا يكفى فقد طغت الماديات على المعنويات وعلى العلم أن يقوم على عناصر روحية ومعنوية تعلى شأن المثل الأعلى والأخلاق ، إن العلم قد وضع فى أيدينا قوة عظيمة إذ لم نحطها بسياج من الخلق والروح والقلب تحولت إلى قوة هدامة مدمرة .

هذه هى أزمة العلم : يقول ول ديورانت : أين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب أنشتين ، وميكوفسكى وغيرهما الكون رأساً على عقب ، وبمذهب النسبية غير المفهوم وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة فى

الميتافيزيقا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع مما أصاب علومنا . وهل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية .

أيمكن أن تكون قوانين الطبيعة غير فروض إنسانية ، هذه الحقيقة الناصعة التى يجهلها الكثيرون ، وهى أن القواعد العلمية الحديثة ليست سوى فروض قام الإنسان بوضعها لتفسير الغوامض التى تحيط به من كل جانب وقد يكون نصيبها النجاح أو الفشل ، وإذا أصابها النجاح فإلى أى مدى وزمن مقدر " .

ويذهب جماعة العلماء إلى أن العلم فى تغير مستمر ، وقد سقطت نظرية ثبوت العلم أو كمال العلم ، وأن كل ما جمع العلم من حقائق إنما هى وسيلة إلى أن تثبت حقائق أخرى ، فالتغير لا الثبوت هو الطابع الذى يتميز به العلم وهذا يعنى أن العلم القلق المتغير هل يمكن أن يكون قاعدة ثابتة لفهم الحياة أو منهجاً وحيداً لفهمها ، هذه هى القضية الكبرى التى تواجه العلماء الآن . لقد عجز العلم عن إعطاء إجابة شافية عن السؤال : لماذا نوجد على ظهر الأرض ؟ والذين يؤمنون بالعلم لا يصلون إلى شىء ويقول ليونارد دارون : إن العلم لا يمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك وإذا كانت هناك إرادة حرة

فلابد أن يكون هناك شىء خارج نطاق العلم ، لقد قررت الحقائق العلمية الأصيلة أن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تدرك كنه الدين فى مجالاته الروحية والاجتماعية لأن العلوم الطبيعية مادية لا تستطيع أن تمارس غير المحسوس والملموس وفى نظام الكون وفى طبيعة النفس البشرية احساسات ومشاعر لا تخضع للمحسوس . ومن هنا خطأ إخضاع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الإنسانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية أو محاولة إخضاع الظواهر الاجتماعية لقوانين معينة على نمط قوانين الطبيعة فى علم الفيزيقا .

كذلك فإننا نحن المسلمون نؤمن بأن حقائق الأشياء ثابتة منذ القدم . أما العلم بها واكتشافها فهو ما يقوم به العلم التجريبى الآن ، وأن شرط المنهج العلمى هو الخروج من الذاتية والأهواء . وأن عجز العلم الآن عن حل المشاكل يعنى أن لابد من قوة فى المعرفة أخرى أكبر وأوسع وأعمق قادرة على ذلك وتلك هى الوحى والدين الحق وأن الذى يحجب الحقائق عن البشرية الآن ويردها إلى الإلحاد والشك ليس هو العلم ولكنها هى الفلسفة المادية ، وأن خطوات العلم القائمة الآن كلها تتجه إلى تزييف الدعاوى الباطلة التى ظلت المادية

تروجها عشرات السنين والاعتراف بالطريق الصحيح ووضع العلم فى حجمه الطبيعى بالنسبة إلى الوحى ودين الله الحق فالأصل فى الدين هو الوحى ورائده التفكير بنور العقل وقد جاء الإسلام مخاطباً العقل ، والأصل فى العلم العقل ورائده التجربة والعلم يقصر مداه عن إدراك سائر الحقائق الكونية وخاصة عالم الغيب ويأمر أهله بأن لا يعادوا ما يجهلون من الحقائق والإسلام صديق العلم بما فيه من نصوص تبعث على طلب العلم والتمرس به وما كان للعلم الصحيح أن ينكر الدين فيحكم على شىء ليس من مفهوم بحثه ، ولا هو داخل ضمن دائرة نظرياته التجريبية الحسية وما كان للعلم أن يخرج عن وظيفته وهى مجرد الاستقراء والملاحظة للظواهر الطبيعية ولا يقول بالنفى والإثبات لما يجهله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر والدين والعلم لا يتناقضان وإن كانا متغايرين فأسلوب العلم فى بحثه موضوعى تجريبى أما الوحى فإنه حقائق ثابتة .

أ . هـ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين